عرش الورد(١)

كانت جَلوةُ العَروس كأنَّها تصنيفٌ من حُلمٍ توافت عليه أخيلةُ السَّعادة ، فأبدعت إبداعَها فيه ، حتَّى إذا اتَّسقَ ، وتمَّ نقلته السَّعادةُ إلى الحياة في يومٍ من أيَّامها الفَرْدَةِ ؛ الَّتي لا يتَّفق منها في العمر الطَّويل إلا العددُ القليل ؛ لتُحَقِّقَ للحيِّ وجودَ حياته بسحرها ، وجمالها ، وتعطيَه فيما يُنْسَى ما لا يُنسى .

خرج الحُلمُ السَّعيدُ من تحت النَّوم إلى اليقظة ، وبرز من الخيال إلى العين ، وتمثَّل قصيدةً بارعةً ، جعلت كلَّ ما في المكان يحيا حياةَ الشِّعر ، فالأنوارُ نِساءٌ ، والنِّساء أنوارٌ ، والأزهار أنوارٌ ، ونساءٌ ، والموسيقا بين ذلك تتمِّمُ من كلِّ شيءٍ معناه ، والمكانُ ، وما فيه ، وزنٌ في وزنٍ ، ونغَمٌ في نغمٍ ، وسحرٌ في سحرٍ .

* * *

ورأيتُ كأنَّما سُحِرَت قطعةٌ من سماء اللَّيل ، فيها دارة القمر ، وفيها نثْرةٌ من النُّجوم الزُّهْر ، فنزلت ، فحلَّت في الدَّار يتوضَّحْن ، ويأتَلِقْن من الجمال ، والشُّعاع ، وفي حُسن كلٍّ منهنَّ مادةُ فجرٍ طالعٍ ، فكنَّ نساءَ الجلوة ، وعَروسَها .

ورأيتُ كأنَّما سُحِر الرَّبيع ، فاجتمع في عرشٍ أخضر ، قد رُصِّع بالورد الأحمر ، وأُقيم في صدر البَهْوِ(٢) ؛ ليكون مِنَصَّةً للعروس ، وقد نُسِّقَت الأزهارُ في سمائه ، وحواشيه على نظمَيْنِ : منهما مُفصَّل ترى فيه بين الزَّهرتين من اللون الواحد زهرة تخالفُ لونهما ؛ ومنهما مُكدَّسٌ بَعْضُه فوق بعضٍ من لونٍ متشابهٍ ، أو متقاربٍ ، فبدا كأنَّه عُشُّ طائرٍ مَلَكيٍّ من طيور الجنَّة أبدع في نَسْجه ، وترصيعِه بأشجارٍ سَقى الكوثرُ أغْصانَها .

وقامت في أرض العرش تحت أقدام العروسين رَبْوَتان من أفانينِ(٣) الزَّهر المختلفةِ ألوانُه ، يحملهُما خَمْلٌ من ناعم النَّسيج الأخضر على غصونه اللَّدْن(٤) ،

---

(١) يصف المؤلفُ في هذه القطعة زفافَ ابنته « وهيبة » إلى ابن عمها ، وهي أول من تزوج من ولده ، وانظر : « عمله في الرسالة » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

(٢) « البهو » : حجرة الاستقبال الكبيرة .

(٣) « أفانين » : جمع فنَن ، وهو الغصن الغضّ الورق ، أو المستقيم .

(٤) « غصونه اللدن » : أي : الناعمة .

تتهافَتُ من رقَّتها ، ونُعومتها .

وعُقِدَ فوق هذا العرش تاجٌ كبيرٌ من الورد النَّادر ، كأنَّما نُزِع عن مَفْرِق[١] مَلِك الزَّمن الرَّبيعيِّ ، وتنظر إليه يسطع في النُّور بجماله السَّاحر ، سُطوعاً يخيِّل إليك : أنَّ أشعةً من الشَّمس الَّتي رَبَّتْ هذا الوردَ لا تزال عالقةً به ، وتراه يزدهي جَلالاً ، كأنَّما أدرك : أنَّه في موضعه رمزُ مملكةٍ إنسانيَّةٍ جديدةٍ ، تألَّفتْ من عروسين كريمين . ولاح لي مراراً : أنَّ هذا التَّاجَ يضحكُ ، ويستحيي ، ويتدلَّل ، كأنَّما عرف أنَّه وحدَه بين هذه الوجوه الحسانِ يمثِّل وجهَ الورد .

ونُصَّ[٢] على العرش كرسيان ، يتوهَّج لونُ الذَّهب فوقهما ، ويكسوهما طِرازٌ أخضرُ ، تلمع نَضارتُه بِشراً ، حتَّى لتحسب : أنَّه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرِحةِ لمسةٌ من فرحها الحيِّ .

وتدلَّت على العرش قلائدُ المصابيح ، كأنَّها لؤلؤٌ تحلَّق في السَّماء ، لا في البحر ، فجاء من النُّور الدُّرِّ ، وجاء نوراً من خاصَّته : أنَّه متى استضاء في جوِّ العروس ؛ أضاء الجوَّ والقلوبَ جميعاً .

وأتى العروسان إلى عرش الورد ، فجلسا جِلْسَةَ كوكبين حدودُهما النُّور ، والصَّفاء ؛ وأقبلت العَذارى يتخطَّرْنَ[٣] في الحرير الأبيض ، كأنَّه من نور الصُّبح ، ثمَّ وقفن حافَّاتٍ حول العرش ، حاملاتٍ في أيديهنَّ طاقاتٍ[٤] من الزَّنبق ، تراها عَطِرةً بيضاء ، ناضرة ، حَيِيَّةً ، كأنَّها عَذارى مع عَذارى ، وكأنَّما يحملن في أيديهنَّ من هذا الزَّنبق الغضِّ معانيَ قلوبهنَّ الطَّاهرة ! هذه القلوبِ الَّتي كانت مع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورُها الضَّاحك .

واقتعدتْ دَرَج العرش تحت رَبْوَتي الزَّهر ودون أقدام العروسين طفلةٌ صغيرةٌ كالزَّهرة البيضاء ، تحملُ طفولتَها ، فكانت من العرش كلِّه كالماسَّة المدلاة من واسطة العقد[٥] ، وجعلت بوجهها للزَّهر كلِّه تماماً ، وجمالاً ، حتَّى ليظهر مَنْ

(١) « مفرق » : المفرق من الرأس : موضع انفراق الشَّعْر .

(٢) « نُصَّ » : رُفِع ، وظهر .

(٣) « يتخطرن » : يتبخترن .

(٤) « طاقات » : جمع طاقة ، وهي الحزمة .

(٥) « واسطة العقد » : الجوهر الذي في وسطه ، وهو أجودها .

دونها كأنَّه غضبان مُنزوٍ ، لا يريد أن يُرى .

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطُّفولة ؛ جعل المكانَ بمن فيه كأنَّ له رُوحَ طفلٍ بَغتَتْه مَسرَّةٌ جديدةٌ .

وكانت جالسة جِلسةَ شِعْرٍ تمثِّل الحياةَ الهنيئة المبتكرة لساعتها ، ليس لها ماضٍ في دنيانا .

ولو أنَّ مُبدِعاً افتنَّ في صُنع تمثال للنِّيَّة الطَّاهرة ، وجيء به في مكانها ، وأخِذتْ هي في مكانه ؛ لتشابهها ، وتشاكلَ(١) الأمرُ .

وكان وجودُها على العرش دعوةً للملائكة أن تَحْضُرَ الزِّفاف ، وتباركه .

وكانت بصِغرِها الظَّريف الجميل تعطي لكلِّ شيءٍ تماماً ، فيُرَى أكبرَ ممَّا هو ، وأكثرَ ممَّا هو في حقيقته ؛ كانت النُّقطةَ ؛ الَّتي استعلَنَت في مركز الدَّائرة ، ظهورُها على صِغرِها هو ظهورُ الإحكام ، والوزن ، والانسجام في المحيط كلِّه .

* * *

لا يكون السُّرور دائماً إلا جديداً على النَّفس ، ولا سرورَ للنَّفس إلا من جديدٍ على حالةٍ من أحوالها ؛ فلو لم يكن في كلِّ دينارٍ قوَّةٌ جديدةٌ غير التي في مثله ؛ لما سُرَّ بالمال أحدٌ ، ولا كان له الخطر ؛ الَّذي هو له ، ولو لم يكن لكلِّ طعامٍ جوعٌ يورِدُه جديداً على المعدة ؛ لما هنأ ، ولا مَرَأ(٢) ، ولو لم يكن اللَّيلُ بعد نهارٍ ، والنَّهارُ بعد ليلٍ ، والفصول كلُّها نقيضاً على نقيضه ، وشيئاً مختلفاً على شيءٍ مختلفٍ ؛ لما كان في السَّماء ، والأرض جمالٌ ، ولا منظرُ جمالٍ ، ولا إحساسٌ بهما ، والطَّبيعة الَّتي لا تفلح في جعلك معها طفلاً تكون جديداً على نفسك لن تُفلح في جعلك مسروراً بها ؛ لتكون هي جديدةً عليك .

وعرشُ الورد كان جديداً عند نفسي على نفسي ، وفي عاطفتي على عاطفتي ، ومن أيَّامي على أيَّامي ؛ نزل صباحُ يومِه في قلبي بروح الشَّمس ، وجاء مساءُ ليلته لقلبي برُوح القمر ؛ وكنت عنده كالسَّماء أتلألأ بأفكاري ، كما تتلألأ بنجومها ، وقد جعلتني أمتدُّ بسروري في هذه الطَّبيعة كلِّها ؛ إذ قدَرتُ على أن أعيشَ يوماً في

(١) « تشاكل » : توافق ، وتماثل .

(٢) « مرأ » : مَرَأَ الطعام : سَهُل في الحَلْق ، وحُمدت عاقبتُه ، وساغ من غير غصص .

نفسي ، ورأيت وأنا في نفسي : أنَّ الفرح هو سرُّ الطَّبيعة كلِّها ، وأنَّ كلَّ ما خلق اللهُ فيَّ جمالٌ في جمالٍ ، فإنَّه تعالى نورُ السَّموات ، والأرض ، وما يجيء الظلام مع نوره ، ولا يجيء الشَّرُّ مع أفراح الطَّبيعة إلا من محاولة الفكر الإنسانيِّ خَلقَ أوهامِهِ في الحياة ، وإخراجه النَّفسَ من طبائعها ، حتَّى أصبح الإنسان كأنَّما يعيش بنفسٍ يحاول أن يصنَعها صناعةً ، فلا يصنع إلا أن يَزيغَ بالنَّفس ؛ الَّتي فطرها الله .

يا عجباً ! ينفِرُ الإنسانُ من كلمات الاستعباد والضَّعَة[1] والذِّلة ، والبؤس ، والهمِّ ، وأمثالِها ، وينكرها ، ويردُّها ، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه في الحياة إلا عن معانيها .

* * *

إنَّ يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعةً ، بل من أربعةٍ وعشرين فرَحاً ؛ لأنَّه من الأيَّام ؛ التي تجعل الوقت يتقدَّم في القلب ، لا في الزمن ؛ ويكون بالعواطف لا بالسَّاعات ، ويتواتر على النَّفس بجديدها ، لا بقديمها .

كان الشَّباب في موكب نصره ، وكانت الحياة في ساعةِ صُلحٍ مع القلوب ، حتَّى اللُّغة نفسها لم تكن تُلقي كلماتها إلا ممتلئةً بالطَّرب ، والضَّحك ، والسَّعادة ، آتيةً من هذه المعاني دون غيرها ، مصوِّرةً على الوجوه إحساسها ، ونوازعها ، وكلُّ ذلك سِحرُ عرش الورد ، تلك الحديقةِ السَّاحرةِ المسحورة ؛ الَّتي كانت النَّسماتُ تأتي من الجوِّ ، ترفرف حولها متحيِّرةً ، كأنَّما تتساءل : أهذه حديقةٌ خُلقت بطيورٍ إنسانيَّةٍ ، أم هي شجرة وردٍ هبطت من الجنَّة بمن يتفيَّأن ظلَّهَا ، ويتنسَّمْنَ شذاها من الحُور ؛ أم ذاك منبعٌورديٌّ عطريٌّ نورانيٌّ لحياة هذه المِلكة الجالسة على العرش ؟ .

يا نسمات اللَّيلِ الصَّافيةَ صفاءَ الخير ! أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها ، وأثرها ، وبركتها من مثل الورد المُبْهِج ، والعِطرِ المنعش ، والضَّوء المُحْيي ؛ فإنَّ هذه العروسَ المعتلية عرشَ الورد . . .

هي : ابنتي . . .

---

(١) « الضعة » : الانحطاط ، واللؤم ، والخسَّة ، والدناءة .